الفصل الثالث

الإعجاز التشريعي

قبل نزول القرآن كان العرب يعيشون في قبائل متفرقة وعشائر متناثرة يحتكمون فيما بينهم إلا عاداتهم وتقاليدهم الموروثة عن أسلافهم والتي فيها من الظلم والجهل بقدر ما كانوا فيه من جاهلية وكفر، وليس لهم من رابطة بينهم وبين غيرهم من القبائل إلا مصلحة مستفادة وبينما هم في تيه التخبط والضلال إذ طلع عليهم صبح الهدى وأشرق عليهم نور الرسالة النبوية فزكى نفوسهم وأقام العلاقة الأخوية القوية بينهم، وجعل منهم بناءً متناسقًا متكاملًا لم يُر قبله مثله، كما أنه حكم علاقتهم بغيرهم من الشعوب والأمم بما يريد الله لا بما تهوى نفوسهم، ورسخ القرآن الكريم في نفوسهم عقيدة التوحيد لله ونبذ الشرك الذي يهوى بالإنسان إلى أحط مكانة وأسوأ الأحوال، نعم حرر القرآن قلوبهم وعقولهم من أسر الخرافة وسلطان الهوى، وعبادة الأوثان، وحينئذ عرفوا حقيقة الحياة ومعناها والغاية منها، ثم فرض الله عليهم من الشرائع ما يطهر نفوسهم ويزكيها، وشرع لهم من الأخلاق ما يكفل لهم كل أمن وأمان، فجاءت شريعة القرآن كاملة معصومة لتكون هي الأخرى معجزة من معجزات القرآن الباهرة، وحججه الظاهرة تلك التي تعلن لكل عاقل، أن هذا القرآن لا يكون إلا كلام الله العليم الحكيم جَلَّ جلاله الذي قال وقوله الحق: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ

عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨-٥٠]، شريعة القرآن هي الأرحم والأحكم، والأمثل والأعدل والأقوم والأكرم والأسلم والأعظم هي النور الهادي، والبلسم الشافي، والبصيرة الهادية لكل حائر، والدواء الناجع لأمراض النفوس والضمائر، وما دامت البشرية بعيدة عن القرآن وهديه فسوف تظل منكوبة منكودة، سوف تظل غارقة تائهة في مستنقعات الشهوات الرخيصة، وفي هوة الدرك المنحط الذي تتجرع كل يوم غصصه وآلامه، ولن تجنى من إعراضها عن القرآن إلا القلق والأرق، والغم والألم، والمادية التي يستوي فيها الإنسان بالحيوان، وإن عذاب المعرضين عن القرآن دائم في الدنيا وإن ظهر خلافه على الوجوه وهو في الآخرة أشد وأبقى وأعظم وأدهى.

نعم فليختر الإنسان لنفسه إما حكم الله وإما ضلال وهوى، إما حكم الله وإما زلل وذل وانحراف وضياع إما حكم الله إله وإما هوان وتبعية لكل أثيم لئيم خبيث زنيم، معتد أثيم فلا يسوغ أبدًا أن يحكم في الأعراض والدماء والأموال إلا شرع الله وحكمه، وإلا فمن ذا الذي يعرف ما في ضمائر الناس ونفوسهم إلا ربهم وفاطرهم جَلَّ جلاله؟! من هذا الذي يعلم ما يصلح الخلق ويسعدهم إلا الله رب العالمين؟! هل هناك أحدٌ أعلم بالبشر من رب البشر؟! وهل هناك أحدٌ أرحم بهم من أرحم الراحمين سبحانه تعالى؟!.

هذه كلمة نقدمها بين يدي حديثنا عن الإعجاز التشريعي للقرآن، لنعلم أنه يجب على كل من آمن بالله أن لا يتحاكم إلا شرعه وألا يرضى إلا بحكمه، وألا يعظم إلا أمره سبحانه وبحمده، وحيث إننا نؤثر الاختصار فتعالوا نذكر صورًا من إعجاز القرآن من ناحية التشريع ليكون ذلك برهانًا خالدًا لكل عاقل على أن هذا القرآن كلام الله جَلَّ وعلا.

وها هو العلم الحديث يثبت في أحدث اكتشافاته أضرارًا عظيمة لأمور حرمها الله في كتابه منذ ألف وأربعمائة عام وتكون هذه الاكتشافات شاهدة بعظمة القرآن، وإن كان لا يحتاج لشهادة أحدٍ من الخلق قط ومن أمثلة ذلك ما يلي:

١- تحريم الزنا:

قال الله جَلَّ جلاله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]

يقول السعدي رحمه الله تعالى: والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله؛ لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه خصوصًا هذا الأمر الذي في كثير من النفوس أقوى داع إليه، ووصف الله الزنا وقبحه بأنه ﴿ فَٰحِشَةً ﴾ أي إثمًا يستفحش في الشرع والعقل والفطر لتضمنه التجرِّي على الحرمة في حق الله وحق المرأة وحق أهلها أو زوجها، وإفساد الفراش، واختلاط الأنساب وغيرذلك من المفاسد ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ أي بئس السبيل سبيل من تجرَّأ على هذا الذنب العظيم(١).

إن أضرار الزنا معروفة عالميًا ولا تقتصر على الأضرار الصحية فحسب بل هي أشد وأخطر وأدهى وأمر من ذلك، ففيها أضرار اجتماعية وأضرار أخلاقية وأضرار اقتصادية، بل وعقوبات عامة وطواعين خطيرة تهلك وتفتك وتدمر وتتبر المجتمع وتهدم أصوله.

فالزنا يضر الدين والعقل والعرض والنفس والمال وتلك هي الضرورات الخمس التي جاءت الشرائع بالمحافظة عليها والأبحاث التي تتبع أضرار جريمة الزنا تكشف كل يوم عن حقائق يصح أن توضح ضمن الأمثلة الكثيرة التي لا تنتهي ولا تنقضي لتدل على أن هذا القرآن من عند الله وأن شرعه هو قارب الأمان وشاطئ السلامة لكل من أراد النجاة.

---

(١) «تفسير السعدي»، ص [٥٢٥]، ط: ابن الجوزي.

وانتشار الزنا وإعلان الناس به أدى إلى ظهور أمراض لم تكن معروفة من قبل، فقد اكتشف في يونيو سنة ١٩٨١ مرض سمي اختصار بمرض AIDS إيدز وهو مرض معد وطرق انتقاله هي الزنا واللواط وعمليات نقل الدم، ويتميز هذا المرض بنقص في الكريات البيضاء من النوع المسي Lymphocites حيث تصير أقل من ٥٠٠ خمسمائة في المليلتر المكعب والقدر الطبيعي فيه من ٤٠٠٠ أربع آلاف إلى ١٠٠٠٠ عشرة آلاف، ومعلوم أن الكريات البيضاء تقوم بدور الدفاع ضد الميكروبات وحوالي ٦٥٪ من المصابين يموتون قبل سنتين على الأكثر.

وجاء في مجلة «المجلة»[١] تحت عنوان: حلف خبيث بين السرطان والإيدز جاء في هذا المقال: إن الإيدز مرض يرعب الولايات المتحدة منذ ثلاث سنوات مما جعلها تجند كل طاقاتها المالية والطبية والعلمية لمكافحته بعدما اعتبرته العدو الأول الذي يهدر صحة أفراد الشعب قبل أمراض السرطان والقلب، ورغم الجهد الطبي الكبير الذي تبذله المراكز الطبية في أمريكا لمحاصرة المرض فإن رئيس اللجنة الصحية في مجلس النواب الأمريكي أعلن أن المرض يزداد سوءًا ولا يتحسن، فخلال الأشهر القليلة الماضية كان عدد الحالات الجديدة المبلغ عنها يوميًا بين ١٠ إلى ١٢ إصابة وخبراء الصحة العامة في الولايات المتحدة يؤكدون أن الصورة ما تزال قاتمة بالنسبة للمصابين بالمرض، فليس هناك حتى الآن علاج له، وقد مات بالفعل أكثر من ٤٠٪ ممن أصيبوا به.

وعن الأمراض الجنسية الأخرى ذكر المقال أن هناك نحو عشرين مليون أمريكي حسب التقديرات الحالية مصابون بمرض الهربز (القوباء) وهو مرض جلدي معدٍ لا يمكن شفاؤه وإن كان غير قاتل.

---

(١) عدد [٢٣٢] الصادر يوم السبت ٢١-٢٧ يوليو سنة ١٩٨٤.

وهناك نحو مليون حالة جديدة من مرض السيلان و١٠٠ ألف حالة جديدة من مرض الزهري كل عام، وهذه الأضرار التي تصيب الجسم من هذه الأمراض جزءٌ مما تفعله به، فإنها إلى جانب هذا تهيئ الجسم للإصابة بأمراض أخرى لا حصر لها.

والزنا مسئول عن الإجهاض التلقائي المتكرر، كما أنه سبب لمعظم حالات الإجهاض المتعمد، حيث تعمد الزانية إلى التخلص من جنينها في بيئة غير طبية غالبًا فتصاب بالتسمم في الكبد والكليتين من جراء الآلات والمواد التي تدخلها في الرحم، وقد تحدث نزيفًا كبيرًا وقد تصل الإصابات أثناء الإجهاض إلى العقم والإصابة في الدماغ والوفاة، ورغم القوانين التي تمنع الإجهاض غير الطبي في أوروبا وأمريكا وأكثر بلاد العالم فإن الأرقام رهيبة؛ لأن الإجراءات لم تتجه للقضاء على أصل الداء.

وهكذا تطالعنا الصحف والمجلات العامة والمتخصصة بين الفينة والأخرى بالإحصائيات الرسمية والدراسات الطبية والاجتماعية التي تبين الانتشار المريع الذي انتشرت به آفات الزنا من: إجهاض، وأبناء سفاح ـ أي أبناء بلا آباء ـ، وأمراض مهلكة، وخيانة زوجية، وعنوسة، وطلاق، واغتصاب، وتجارة أعراض[1].

نعم، لقد تردت المجتمعات الغربية في مستنقعات الفواحش حتى لقد سنت القوانين التي تبيح الزنا والشذوذ، ولذا كانت النتيجة الحتمية لهذا التحلل والانحراف عن الفطرة أن جاءهم هذا العقاب الإلهي فليتهم يعقلون!! وليتهم يتوبون إلى فطرة الله ودينه ويرتدعون عن خبث الكفر وقذارة الفواحش!!

لقد ظهرت فيهم الأمراض الجنسية الوبائية المهلكة من مثل ما ذكرنا، ولقد شهد العالم موجات كاسحة من انتشار وباء الزهري على فترات منذ أن ظهر لأول مرة عام ١٤٩٤م، وقد قضى هذا المرض على مئات الملايين من البشر في القرون الخمس الماضية وحطم حياة ملايين أخرى منهم، وجرثومة هذا المرض دقيقة ضعيفة لا ترى

(١) «دليل الأنفس في القرآن الكريم» لمحمد توفيق ص [٣٧٥] وما بعدها، ط: دار السلام، وأصل هذا البحث رسالة ماجستير أجيزت بامتياز تحت إشراف الدكتور مصطفى حلمي حفظه الله تعالى.

بالعين المجردة لكنها قاتلة خطيرة تهاجم أعضاء الجسد وفي غفلة من الضحية حتى تدمره وتقضي عليه بعد رحلة طويلة من الآلام والأوجاع التي لم يعهدها الناس وما سمعوا بها من قبل.

ويتصدر مرض السيلان قائمة الأمراض المعدية، فهو أكثر الأمراض الجنسية شيوعًا وانتشارًا إذ يتراوح الرقم المثبت في الإحصائيات حوالي ٢٥٠ مليون مصاب سنويًا، وهذا لا يمثل الحقيقة؛ لأن عدد الحالات المبلغ بها والواردة في الإحصائيات تمثل من عشر إلى ربع الرقم الحقيقي.

وبرغم هجوم ميكروب السيلان الدقيق على جميع أعضاء الجسم وتسببه في الالتهابات والعلل والآلام للمصاب إلا أن أخطر آثاره هو قطع نسل المريض المصاب به؛ لذلك يسمى هذا المرض بالمعقم الأكبر.

وهكذا كل الأمراض الجنسية: الهربس-القرحة-الرخوة-الورم البلغمي الحبيبي التناسلي-الورم الحبيبي المغبني-تآليل التناسل-المليساء المعدية-التهاب الكبد الفيروسي إلى غير ذلك من فطريات وطفيليات الجهاز التناسلي التي تصيب ملايين المتحللين المنحرفين.

والجدير بالذكر أن مرض الإيدز ليس مرضًا واحدًا بل هو عدة أمراض متزامنة، وسرطانات عديدة، وهذا المرض يسببه فيروس صغير جدًا لا يُرى إلا بعد تكبيره مئات الآلاف من المرات بالمجهر الإلكتروني، ولا يترك هذا المرض صاحبه حتى يجعله هيكلًا عظميًا ويصيبه بتضخم كبير في الطحال والغدد الليمفاوية، ويصيبه بأورام سرطانية وأمراض جلدية عديدة، ولا يترك هذا الفيروس الضعيف أي مكان في الجسد إلا أصابه حتى الجهاز العصبي والمخ، فيصاب المريض بالتشتت العقلي، والإحباط، والكآبة، ثم

الاختلال العقلي والجنون في المراحل المتأخرة، بالإضافة إلى التهابات الدماغ والنخاع الشوكي والسحائي والذي يؤدي إلى الشلل وأحيانًا إلى العمى، ثم ينتهي المريض إلى الموت والهلاك[١].

٢- تحريم الخمر:

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٠-٩٢].

إن أضرار الخمر مجال لمئات الأبحاث الطبية لا يتسع المقام الآن إلا لعرض نماذج معدودة[٢].

أما مضرة الخمر الدينية والأخلاقية والعقلية فهي مما لا يحتاج إلى بيان وتفصيل، وأما مضرتها البدنية فقد أجمع عليها الأطباء؛ لأنهم وجدوها سببًا في كثير من الأمراض الخطيرة المستعصية ولو لم يكن فيها إلا ذهاب العقل لكفى سببًا للتحريم، فكيف يشرب المرء تلك الآثمة التي تزيل عقله فيكون بحال يضحك منها الصبيان ويتصرف تصرف المجانين، ولعظم خطرها وكثرة ضررها حاربتها الحكومات في الولايات المتحدة وغيرها[٣].

---

(١) مجلة الإعجاز العلمي للقرآن بمكة المكرمة نقلًا عن «ولا تقربوا الزنا» للشيخ مصطفى العدوي حفظه الله، ص [٣٦] وما بعدها باختصار، ط. مكتبة مكة.

(٢) من أراد التوسع فلينظر: «الخمر بين الفقه والطب» للدكتور محمد علي البار ط. الدار السعودية للنشر.

(٣) «تيسير العلام شرح عمدة الأحكام» (٢/ ٢٩٢)، ط: دار العقيدة.

ومن أضرار الخمر الواضحة ما يلي:

أولًا - الأضرار الجسمية:

من الأضرار الجسدية للخمر التهاب المعدة حيث يتوقف الغشاء الداخلي عن التجدد فتستبدل العصارات المعدية بسوائل أخرى ذات قدرة هضمية ضعيفة وهذه السوائل تتراكم خلال الليل ويتقيأ المخمور صباحًا ما تراكم في معدته.

ومن الأضرار الجسدية للخمر التهاب الكبد حتى تُصاب الكبد بالتلف أو التشمع [السيروز] وتصاب الكبد شيئًا فشيئًا رغم قدرتها الجبارة على مقاومة السموم لكن زيادة المخمور كمية الخمر وانقاصه لكمية الطعام يعجل بانهيار مقاومتها، ويتميز هذا المرض الذي يصيب الكبد بنمو النسيج الرابط الذي يضايق النسيج الغدي فيخنقه ويحل محله شيئًا فشيئًا ثم تضمر حتى تصير صغيرة ويتجمع منها سائل في البطن ويستحيل إيقاف تطور المرض بدون الإقلاع التام عن تعاطي الخمور.

وأما أعراض النقص في التغذية ونقص مجموعة فيتامين ب B ونقص الهرمونات الجنسية فأعراض معروفة عند المدمنين لتأثير الخمر على الشهية وعلى هذه الهرمونات والفيتامينات.

وأما صلة الخمر بسرطان الأجهزة الهضمية والدورية والبولية والتناسلية فليس فقط أنه يهيئ للإصابة به، بل إنه عامل فعَّال في الإصابة.

ثانيًا - الأضرار العقلية:

دلت الأبحاث الجديدة أن تأثير الخمر في الدماغ يكون مباشرة على منطقة فيه تسمى بالتشكيل الشبكي، وهذه بدورها تؤثر على وظائف المخ الأخرى[١].

---

(١) انظر كتاب الإدمان مشكلة العصر الخطيرة لنبيل صبحي الطويل ص(٢٣).

وللخمر تأثير على الجهاز السمباثاوي مما يبطئ العمليات الداخلية التي يتحكم فيها هذا الجهاز، وله تأثير على المهارات والحركات الانعكاسية، وهو مصدر حوادث الطرق، ويسبب إتلافه لفيتامين ب B يسبب التهاب أعصاب الأطراف، والخمر سبب من أسباب المرض العقلي المسمى بالبارانويا أو الشعور بالاضطهاد، وكذلك المرض المسمى بـ «انفصام الشخصية»، وله دخل كبير في اضطرابات النوم والمزاج، للخمر تأثير مشاهد على المتعاطين له من ضعف عقلي وهبوط في مستوى الذكاء والتذكر.

ثالثًا- الأضرار النفسية:

مدمنو الخمر هم أكثر رواد العيادات النفسية، والكتب الطبية حافلة بتقسيمات مطولة لأنواع الأمراض العقلية والنفسية التي تسببها الخمر أو تكون طرفًا في حدوثها، ولا يخفى أن إصابة الجسم بهذه التشكيلة المنوعة من الأمراض الجسمية والعقلية والنفسية يجعله معرضًا للموت المبكر، وفعلًا فالمدمنون للخمر أصحاب أعمار قصيرة؛ لأن الخمر يضعف أجهزة أجسامهم ويصيبها بالعجز فيسرع إليها التلف، وهناك صلة بين الخمر وبين ارتفاع نسبة الانتحار بين المدمنين.

رابعًا- الأضرار الاجتماعية والاقتصادية:

هناك صلة معروفة بين تعاطي الخمر وبين الجرائم بأنواعها، وكذا حوادث السير في الطرق ويرتبط الخمر بهبوط الانتاج عند المتعاطين له بسبب كثرة التغيب وضعف التركيز أثناء العمل.

وقد لخصت الموسوعة الطبية للعائلة أضرار الخمر الاجتماعية والاقتصادية عندما قالت في آخر ما كتبته عن الخمر وأضراره: إن الفرد المدمن للخمر مواطن غير كفء، والمشتغلون بأبحاث الوراثة يجمعون على أن الجنين الذي يتكون في حالة نشوة أبيه أو أمه ينشأ غالبًا مصابًا بالبله أو الذهول الدائم أو الصرع أو ضعف الحواس

أو الجنون أي بصفة من الصفات العارضة التي كان أحد أبويه تحت تأثير الخمر متلبسًا بها[١].

وحول الأضرار الجسيمة التي تلحق بأطفال الأمهات اللاتي يتعاطين خمرًا ذكر تقرير طبي من «بون» كما في صحيفة الشرق الأوسط ٨/ ١/ ١٩٨٤ أنه يولد سنويًا في ألمانيا الغربية ما بين ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف طفل مشوَّه نتيجة لهذه الآفة، وبالإضافة إلى التشوهات الجسمية يتميز هؤلاء الأطفال بخلل في التطور النفساني والعقلي كالخوف الشديد والعصبية الزائدة وصعوبات بالغة في الأكل والنوم وبعد بضع سنوات يطرأ على عدد كبير من هؤلاء الأطفال خلل في القدرة على التركيز والكلام وضعف في الذكاء.

وفي دراسة تمت سنة ١٩٧٥ تبين أن خسائر الولايات المتحدة في هذا المجال ٤٢٧٥٠ مليون دولار ما بين انخفاض في الانتاج وعناية صحية وتعويضات في التأمينات الاجتماعية ومكافحة للجريمة وخسائر في حوادث الحرائق[٢][٣].

٣- تحريم إتيان النساء في المحيض:

حرم الله جَلَّ جلاله أن يجامع الرجل زوجته أثناء فترة حيضها قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

[البَقَرَة: ٢٢٢]

---

(١) «الوراثة والبيئة» بعبي عبد الواحد، ص [٢٩]، ط. دار نهضة مصر بالفجالة.

(٢) «الإدمان الكحولي مشكلة العصر الخطيرة» لنبيل صبحي الطويل، ص [٨٢].

(٣) هذا الأضرار ملخصة من كتاب «دليل الأنفس في القرآن»، ص [٣٨٣]، وما قبلها، ط: دار السلام.

لقد أثبت الطب الحديث أن مهبل المرأة في الوضع الطبيعي يحتوي على «أورجانيمات» بكتيرية عصوية تخمر «الجليوكوجن» إلى حمض اللبن فتجعل محتويات المهبل حمضية تقاوم الإصابة بالجراثيم الضارة، أما في وقت الحيض وبسبب نزول الدم يكون الوسط متعادلًا لا يقاوم نمو الجراثيم الضارة وبالتالي إذا حدث اتصال جنسي بين الرجل وزوجته أثناء الحيض كان ذلك سببًا مباشرًا لنقل الجراثيم لتتكاثر في المهبل بما يؤدي إلى التهاب الجهاز التناسلي للمرأة، وقد يتسبب في العقم، ولا يقتصر الضرر المتحقق على المرأة فقط بل يمتد كذلك إلى الرجل[1].

هل تعلم أن الغشاء المبطن للرحم أثناء الحيض يقذف الدم خارج الرحم؟! إنه بفحص دم الحيض تحت المجهر وجد قطعًا من الغشاء المبطن للرحم ووجد الرحم متقرحًا نتيجة لذلك مما يعرضه بسهولة للعدوى البكتيرية.

ومن المعلوم طبيًا أن الدم هو خير بيئة لتكاثر الميكروبات ونموها وتقل مقاومة الرحم للميكروبات الغازية نتيجة لذلك.

كما يصبح دخول الميكروبات الموجودة على سطح القضيب مشكلًا لخطر داهم على الرحم، ومما يزيد الطين بلة أن مقاومة المهبل لغزو البكتيريا تقل كثيرًا وتكون في أدنى مستواها أثناء الحيض، ليس هذا فحسب ولكن جدار المهبل الذي يتكون من عدة طبقات يقل أثناء الحيض إلى أدنى مستواه ويمتد الالتهاب إلى قناة الحيض كما يمتد إلى قناة مجرى البول والكلية.

ويصاحب الحيض آلام شديدة تصاب على أثرها كثير من النساء بحالة كآبة وضيق كما أن حالتها العقلية والفكرية تكون في أدنى درجاتها أثناء الحيض وقد عقد مؤتمر علمي في إحدى الدول الأجنبية الغربية وتطرق المتحدثون إلى ذكر الحيض

(١) «فصل البيان في العلاج بالقرآن» لمحمد رمضان، ص [٧٣]، ط: دار الإيمان.

وفترة المحيض، فقام أحد علماء المسلمين وذكرهم بالآية السابقة والأضرار الطبية التي جاءت متوافقة تمام الاتفاق مع الآية القرآنية فسمعت هذا الكلام امرأة باحثة كانت بالمؤتمر فهبَّت واقفة وقالت متعجبة: ما الذي تقوله؟! إن هذا الأمر لم يكتشف إلا حديثًا وما عرفت أضرار الحيض وإتيان المرأة أثناء المحيض إلا قريبًا وتأتي أنت وتقول قد عرفناه قديمًا وأخبرنا القرآن بذلك ؟! ثم طلبت منه أن يقرأ الآية مع تفسيرها ففعل فعلمت أن ذلك هو الحق من ربها فأعلنت إسلامها[1] وعادت إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها وهي توحيد الله جَلَّ جلاله.

٤-تحريم الدم ولحم الخنزير:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥].

والدم هنا هو الدم المسفوح، أما ما يبقى في العروق واللحم بعد الذبح فلا يضر، وحرم لحم الخنزير لقذارته وخبثه وذلك شامل للحمه وشحمه وجميع أجزائه والتحليلات التي أجريت للدم قد أكدت أن الدم يحتوي كمية كبيرة من حمض البوليك Uric Acid وهو مادة سامة تضر بالصحة لو استعملت غذاءً وهذا هو السر في الطريقة الخاصة التي أمر بها الله في ذبح الحيوانات، والمراد بالذبح في المصطلح الإسلامي هو الذبح بطريقة معينة حتى يخرج سائر الدم من جسم الحيوان وهو أن نقطع الوريد الرئيسي الذي يوجد في العنق فقط، وأن نمتنع عن قطع الأوردة الأخرى حتى يمكن استمرار علاقة المخ بالقلب إلى أن يموت الحيوان لكيلا يكون سبب الموت الصدمة العنيفة التي وجهت إلى أحد أعضاء الحيوان الرئيسية كالدماغ أو القلب أو الكبد،

(١) «الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن» (٥٣١-٥٣٢).

والمقصود من هذا هو أن الدماء تتجمد في العروق لو مات الحيوان في الحال على إثر صدمة عنيفة، وهكذا يتسمَّمُ اللحم كله نتيجة سريان حمض البوليك في أنحائه[١].

وحرم الله في القرآن لحم الخنزير ولم يعرف الإنسان في الماضي شيئًا عن أسرار هذا التحريم، ولكنه يعرف اليوم أن لحم الخنزير يسبب أمراضًا كثيرة؛ لأنه يحتوي على أكبر كمية من حمض البوليك من بين سائر الحيوانات على ظهر الأرض، أما الحيوانات الأخرى غير الخنزير فهي تفرز هذه المادة بصفة مستمرة عن طريق البول، وجسم الإنسان يفرز ٩٠٪ من هذه المادة بمساعدة الكليتين، لكن الخنزير لا يتمكن من إخراج حمض البوليك إلا بنسبة ٢٠٪ والكمية الباقية تصبح جزءًا من لحمه، ولذلك يشكو الخنزير من آلام المفاصل والذين يأكلون لحمه هم الآخرون كذلك[٢].

ومن طريف ما يذكر أن بعض المستشفيات الأوربية كانت بها حظيرة للخنازير وذلك من أجل إعداد الطعام للعاملين والمرضى، وفي أحد الأيام تدافعت الخنازير إلى الفرن المملوء بالأقطان الطبية المبللة بالدم والقيح والتي تم استعمالها في علاج القروح وغيرها، والمهيَّأة للعرق التهمت الخنازير هذه الأقطان وتوفيرًا للعلف قررت إدارة المستشفى أن تصبح نصف هذه النفايات المبللة بالقيح والأوساخ طعامًا للخنازير، وهكذا أصبح مرضى تلك المستشفى يتغذون بلحم خنازير مملوءة بالسموم والنفايات. !! فيا للعجب !!

ولحم الخنزير رجس نجس مستقذر خبيث، وقد وصفه ربنا جَلَّ وعلا في القرآن بأنه رجس وكفى بهذا الوصف تنفيرًا لكل عاقل وزاجرًا لكل سامع ورادعًا لكل فاهم

---

(١) «الإسلام يتحدى» لوحيد الدين خان، ص [١٣١].

(٢) «الإسلام يتحدى» لوحيد الدين خان، ص(١٣١-١٣٢).

بصير، قال الله جَلَّ جلاله: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾.

[الأنعام: ١٤٥]

والخنزير حيوان كسول، جشع، قذر، رمام، يأكل النبات والحيوان والجيف والقمامة كما يأكل فضلاته هو وفضلات غيره من الحيوانات، وهذا من أسباب قيامه بدور كبير في نقل العديد من الأمراض الخطيرة للإنسان وتسمى الأنثى منه باسم الخنزيرة (Sow) وهي من النوع الولود، والخنزير المخصى يعرف باسم الحلوف (Hog)، ويستعار اللفظ وصفًا لكل قذر، شره، أناني من البشر، وتستخدم لفظة Swine للتعبير عن الخنزير بصفة عامة سواء كان ذكرًا أو أنثى وتستعار هذه اللفظة لكل حقير النفس، بخيل اليد، قذر المظهر والملبس، متصف بأحقر الصفات أو للمرأة الساقطة المجردة من كل فضيلة، ويعرف للخنزير اليوم أكثر من أربعمائة سلالة، ونظرًا لطبيعته الرمامة وقذارته الواضحة وأكله للنباتات واللحوم والجيف، فإنه معرض للإصابة بالعديد من الأمراض مثل حمرة الخنازير وتنتقل إلى الإنسان عن طريق البكتيريا في لحم الخنزير، وكذلك مرض حمى الخنازير وتعرف باسم كوليرا الحلاليف Hog cholerd، ويتسبب في هذا المرض فيروس خاص يوجد في الجيف، وكذلك مرض حويصلات الخنازير وهو يشبه مرض الحمى القلاعية، ويمكن انتقاله إلى الإنسان عن طريق أكل لحوم الخنزير ودهونه، ومن مسبباته فيروسات القمامة والجيف والجراثيم المصاحبة لها، هذا بالإضافة إلى العديد من المواد المسببة للسرطان والطفيليات والجراثيم التي تُعشعش في لحم الخنزير وبعضها يتسبب في أمراض معدية للإنسان وقاتلة له في كثير من الأحيان وذلك لعدم وجود طريقة للتخلص منها على الإطلاق، ومن أخطر مسببات الأمراض في الخنزير ما يلي:

١- ديدان التريْخينا: وهي من أخطر الطفيليات على الإنسان وتتسبب في أمراض روماتيزمية عديدة والتهابات عضلية مؤلمة تؤدي إلى انتفاخ الأنسجة العضلية

وتصلبها وتعرف باسم داء الشعرينات الذي ينتج عن انتشار يرقات هذه الدودة في عضلات الجسم مما يؤدي إلى إقعاد المريض إقعادًا كاملًا ومعاناته من الآلام المبرحة حتى وفاته بعد أن يصاب بالتهاب المخ والنخاع الشوكي، ويصاب حاليًا بهذا المرض نحو ٤٧ مليون شخص في الولايات المتحدة وحدها ونسبة الوفاة بين المصابين به تبلغ نحو ٣٠٪، والخنزير هو المصدر الوحيد لإصابة الإنسان بهذا المرض الخطير.

٢- **الدودة الشريطية الوحيدة للخنزير**: وهذه تتسبب في العديد من الأمراض للإنسان مثل فقر الدم، واضطرابات الجهاز الهضمي، والمغص، والإسهال، والقيء، والاكتئاب الشديد، والسوداوية، وقد يصل ذلك النوبات الصرعية، والتشنجات العصبية الشديدة، وأخطر ما في هذه الدودة هو دخول يرقاتها إلى مجرى الدم الذي قد يحملها إلى أحد الأعضاء الحيوية في الجسم من مثل المخ والقلب والكبد والرئتين والحبل العصبي المركزي، حيث تنمو وتتحوصل محدثة ضغوطًا كبيرة على الأنظمة من حولها ومسببة عددًا من الأمراض الخطيرة التي تنتهي بوفاة المريض بعد معاناة طويلة.

٣- **الديدان الحلقية**: مثل دودة الإسكارس، والديدان الخطافية، والديدان المنشقة اليابانية والتي تؤدي إلى نزيف دموي حاد يعقبه فقر دم، وإذا وصلت بويضاتها إلى أي من المخ أو العمود الفقري فإنها تسبب فشلًا كاملًا ثم الوفاة، هذا بالإضافة إلى سلسلة طويلة من الديدان والجراثيم والبكتيريا التي تدمر جسد الإنسان تدميرًا كاملًا منها التهاب القصبة الهوائية، والسل، والكوليرا، والتيفوئيد، ونزيف الرئتين، وتضخم الكبد، وتعفن الأقدام.

٤- **الحيوان الأولي الهدبي**: المعروف باسم القربية القولونية الذي يسبب مرض الزحار الشديد وبعض أمراض عضلة القلب ومصدره الوحيد للإنسان هو الخنزير وهو مرض معدٍ ينتشر بين كل من له علاقة بتربية الخنزير أو ذبحه وسلخه.

٥- الديدان المفلطحة (المثقوبيات أو الوشائع): ومنها ما يصيب الأمعاء أو المعدة أو الرئة أو الكبد ويعمل الخنزير على نشر هذه الديدان في البيئة وعلى نقلها لمن يأكل لحمه من بني الإنسان.

هذا بالإضافة إلى أن لحم الخنزير صعب الهضم لاحتوائه على نسبة دهون أعلى من لحم أي حيوان آخر، وكذلك فإن دهن الخنزير عالي التشبع بدرجة تفوق درجة تشبع أي دهن حيواني آخر، ولذلك يصاب آكلوه بأمراض حصى المرارة وانسداد قنواتها، وبتصلب الشرايين، وبالعديد من أمراض القلب والدورة الدموية.

ولحم الخنزير يفسد بسرعة عن أي لحم آخر وله رائحة كريهة، وقد ثبت أن كلًا من لحم الخنزير ودهنه ودمه يساعد على انتشار أنواع عديدة من الأمراض السرطانية من مثل سرطان كل من القولون والمستقيم والبروستات والبنكرياس والمرارة والرحم والثدي وإلى العديد من أمراض الحساسية المختلفة، وقرح الجهاز الهضمي، وقرح الساق المزمنة، والتهاب كل من الدماغ وعضلة القلب وأغلب ذلك من الأمراض الفيروسية التي يلعب الخنزير دورًا رئيسيًا في نقلها للإنسان، أما أهم الأمراض البكتيرية التي ينقلها الخنزير إلى الإنسان فتشمل الحمى المالطية، السالمونيللا، الجمرة الخبيثة، الدرن، الدرن الكاذب والدوستاريا (الزحار).

وأغلب هذه الفيروسات والبكتيريا والطفيليات التي تتكدس في جسم الخنزير لا يمكن القضاء عليها بمجرد طهي لحمه أو إدخاله النار[1].

شتان شتان!!

هذه أمثلة قليلة معدودة والأمر قد يقتضي بسطًا أكثر لكن في هذا الكلام كفاية، ولعل من الشواهد الواقعية الراهنة تلك الأزمة الاقتصادية والهزة المالية التي يتعرض

(١) «ملخص من موسوعة الإعجاز العلمي» (٣/ ٣٥٩-٣٦٣)، «الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن والسنة النبوية» ص (٥٣٨-٥٤٠)، ط: دار ابن الجوزي.

لها العالم الغربي في هذا الآن وذلك نتيجة النظام الربوي الذي يعيش عليه مجتمعهم، حتى لقد صرح عاقلون منهم في أثناء هذه الأزمة بأنه لابد من العودة لمنهج القرآن[١] ، ولعلنا نقف معه وقفة فيما يلي من صفحات، ولكن تعالوا نلقي نظرة أخرى سريعة على جوانب من الكمال في شرع الله جَلَّ جلاله، وها هو الشيخ محمد أبو زهرة عليه رحمة الله يعقد مقارنة بين شرع الله وبين القانون الروماني الذي كان يعد خير منظم عرف في العصر القديم وعنه انبثقت قوانينهم الحديثة فيقول: القرآن سوَّي في أحكامه بين كل الناس فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، وإذا ارتكب العربي ما يعاقب عليه لم يفلت من العقاب وكان مساويًا لغيره ولم يكن كذلك قانون الرومان، فقد جعل ما فيه من مزايا خاصة بالرومان وجعل عقاب الروماني دون عقاب غيره، والقرآن لم ينقص إلا عقاب العبيد فجعله على النصف من عقاب الأحرار؛ لأن الجريمة هوان وهي تصغر بصغر الجرم وتكبر بكبره، فتصغر على العبد وتكبر على الحر، وقد كان القانون الروماني عكس ذلك إذ جعل عقوبة الزاني من العبيد الإعدام ومن الأحرار إيذاءً صغيرًا.

والشريعة القرآنية أعطت الحرية الكاملة لكل من بلغ سن الرشد، ولا فرق بين ذكر وأنثى، والصغير والصغيرة قبل بلوغهما الرشد ذمتهما من ذمة أوليائهما، وإذا بلغا الرشد صارت لهما الحرية المالية الكاملة، وكذلك الشخصية وأما قانون الرومان فقد جعل ولاية الأب تستمر على ولده ولو كان ذكرًا ما دام الأب حيًّا والولد كالرقيق في يد أبيه إلا أن يمنحه الأب الحرية أو الولاية فهي منحة للأب وليست حقًّا للابن.

وعاملت شريعة القرآن المدنيين بأرفق معاملة إذا عجزوا عن سداد الدين، فالمدين إذا عجز عن سداد دينه وكان دينه في غير سرف سدد عنه بيت المال من الزكاة كما جاء بنص القرآن، أما الدين عند الرومان فكان يسترق المدين إذا عجز عن الأداء.

---

(١) كُتب هذا الكلام أثناء أحداث الانهيار الاقتصادي العالمي في إفلاس كثير من البنوك الكبيرة في العالم.

وعاملت شريعة القرآن الرقيق أرفق معاملة وضيقت نطاق الرق ووسعت نطاق العتق واعتبرت رق الإنسان نظامًا استثنائيًا، وقد كان الرق سائدًا في العالم قبل الإسلام وبعده، ولم يكن للرقيق حق شخصي ولما جاء الإسلام اعتبره نظامًا استثنائًا وأثبت للرقيق كل الحقوق التي تثبت للحر وتضاعف حقوقه على سيده، فليس للسيد أن يضربه، ولو لطمه كانت العقوبة عتقه وضيق نظام الرق ولم يسوغه إلا في الحروب وجعل من أقرب القربات إلى الله تعالى العتق وجعله كفارة لكثير من الذنوب.

وأعطى الإسلام المرأة حقوقها كاملة وما كان لها عند الرومان أي حقوق، فكانت قبل الزواج في رق أبيها وبعد الزواج في رق زوجها حتى كان له أن يقتلها من غير أي عقاب، فجاء الإسلام وجعل لها شخصية كاملة وذمة كاملة منفصلة عن زوجها ولم تنل هذا الحق الأخير إلى اليوم إلا في بعض القوانين الأوروبية.

وقد نظم القرآن قضية المواريث فجعل الميراث يعم الأسرة كلها وشدد في تنفيذه ولو قورن هذا النظام بأي قانون من قوانين العالم لفضله والقانونيون يعترفون بذلك، وأما الفرق بينه وبين القانون الروماني كالفرق بين العدل والظلم، ولم يصل أي نظام قانوني في العالم إلى مثل نظام القرآن والقانونيون في الغرب يعترفون بأنه أمثل نظام عُرف، وقد جاء كل هذا على نظام نبي أمي لا يقرأ ولا يكتب ولم يعلم أحدٌ أن هذه الأحكام كانت في قانون قبله، وإذا كان القانون الروماني نتيجة تجارب منذ ثلاثة عشر قرنًا وانتفع هذا القانون الروماني من نظم أثينا ونظم إسبرطة، وجمهورية أفلاطون، وكتاب السياسة لأرسطو ومع كل ذلك جاءنا ناقصًا، فبأي شيء إذًا نفسر سبق شريعة القرآن وعصمتها، وإذا كانت هي حق من عند الله فلماذا يكذبون بها والأمارات شاهدة والبيانات قاطعة، لذلك نقول : إن شريعة القرآن هي أقوى وجوه الإعجاز وهي الدالة على إعجازه إلى يوم القيامة وهي قائمة إلى اليوم حجة على العربي لا يفترق في قبولها من يعرف لغة القرآن ومن لا يعرفها، فهي شفاء لأسقام المجتمعات كما قال

سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧][(١)].

وقد يلومني غيور على إيراد هذه المقارنة والموازنة بين كلام الله وقانون بشري فأقول: بضدها تتميز الأشياء وإنما يعرف النور من عرف الظلماء، ولعل فيما ذكرنا نوع من التنزل مع الخصم ليستوعب المقال وليفهم المراد وإلا فكلام ربنا أعلى وأعظم من أن يوضع في مقارنة مع كلام بشرى ناقص هزيل كقائله.

ولعل من المناسب في هذا الإطار أن أذكر هذا المشهد يقول الشيخ أحمد ديدات رَحِمَهُ ٱللَّهُ: منذ سنوات مضت طلق ملك سوازيلاند زوجته المتوجة، فعكف رجال الكنائس على البحث في التشريعات النصرانية لتحديد الفترة التي يجوز لملك البلاد بعدها أن يتخذ ملكة جديدة، ولما كان للملك ثمان زوجات أخريات، فقد تفرع البحث في قضية أخرى شائعة: متى يجوز لأرملة الملك أن تتزوج من جديد وأمر الملك بعقد مجمع عام لكل كنائس المملكة أملًا في الاتفاق على رأي وسعيت لحضور هذه المناظرة الممتعة ومعي أخ صديق مسلم من «سوازيلاند» فأذن لنا.

وفي إحدى الجلسات احتدم النقاش وتوالى المتحدثون يتبارون في مواهبهم الخطابية، فتجاوب السامعون مع كل متحدث بالتصفيق الحاد، وكلما قام متحدث نقض ما قاله سابقوه واستهزأ بعقولهم وأقدارهم، وبعد ساعات طوال جاء دوري في الحديث فبدأت بقولي: ما زلنا منذ الصباح ندور حول أنفسنا في حلقة مفرغة بحثًا عن إجابة شافية لقضية مدة العدة للأرملة، والكل يستشهد مرة تلو المرة بالعهد القديم ثم بالعهد الجديد، هكذا بلا طائل، والسبب هو أن أحدًا منا لم يلجأ إلى هذا الكتاب «المصحف الشريف» الذي رفعته فوق رأسي حتى يراه الجميع هذا الذي أسميته مجازًا العهد الأخير.

(١) «أصول الفقه» للشيخ محمد أبي زهرة ص(٧٧-٧٩)، ط: دار الفكر العربي وكلامه هذا بعضه في أصل الكتاب وبعضه في هامشه، وقد جمعت بينهما في هذا السياق.

العهد الأخير يا سادة هو القرآن الكريم ففي سورته الثانية «سورة البقرة» الآية رقم [٢٣٤] سنجد الإجابة الحكيمة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٤].

ثم تساءلت: أربعة أشهر وعشرة أيام أتدرون لماذا؟ صاحوا جميعًا: لا، فاستطردت لأشرح الحكمة المعجزة في هذا التشريع فأشرت إلى آية سابقة في سورة البقرة تحدد عدة المطلقة بثلاثة شهور للتأكد تمامًا من عدم حملها:﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٨].

ولقد زيدت المدة للأرملة فوق عدة المطلقة أربعين يومًا إضافية ولم يكن ذلك اعتباطًا وإنما لحكمة تبينها الآية التالية: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٥].

الحكمة إذًا هي حماية الأرملة من استغلال الرجل لظروفها ونفسيتها، بعد أن فقدت أيضًا بمضي الزمن جمالها ورونقها للإيقاع بها في زواج غير متكافئ يضر بمصالح أبنائها مع زوج لا يحفظ لها قدرها فهي في حاجة إلى فسحة من الوقت تستعيدُ فيها توازنها وصفاء نفسها وفكرها وتناقش الأمر بهدوء مع أهلها وتلتمس النصح والرأي قبل أن تتخذ القرار السليم.

وبعد، فهل كان محمد ﷺ عالمًا في الاجتماع أو خبيرًا في التشريع حتى يأتي بهذا التشريع الحكيم؟! كلا بل هو تشريع خالق الكون العليم الحكيم وما

محمد ﷺ إلا مبلِّغ يتلقى الوحي من اللوح المحفوظ ليردده بلا تبديل ولا تحريف إلى البشرية جمعاء: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]. (١).

ولله درُّ القائل:

هذي دعائمنا تشع كشمنا ... الله مقصدنا نقول ونجزمُ
دستورنا القرآن لا نرضى سوى الـ ... ـقرآن تشريعًا يسودُ ويحكم
لم نعرف الإسلام إلا دعوة ... وضاءة تحيى الأنام وتلهمُ
لم نعرف الإسلام إلا قوة ... تهوى على الرأس العنيد وتحطمُ (٢)

وبعد،

فشريعة القرآن وحدها هي التي تكفل وتضمن للبشرية كل مقومات السعادة والاستقرار والأمان لأنها حكم الله الذي خلق الخلق وهو وحده سبحانه الذي يعلم ما يصلح عباده ويهديهم ويهذب ضمائرهم وأخلاقهم ويأخذ بنواصيهم إلى جنة ربهم جَلَّ جلاله، وكل من أعرض عن القرآن فإنه ولابد أن يتجرع مرارة الذل والتيه، وأن يتخبط في حياته ولا يهتدي سبيلًا، وهذا بيان واقعي لتفوق الشرع القرآني على ذلكم الحكم البشري الذي يتخبط فيه كل جاهل غبي ومن ذلك ما يلي:

١- منذ زمن قريب حرمت أمريكا الخمر، ولكنها فشلت ولم تنجح لأنها لم توفق إلى الطريقة الحكيمة التي اتبعها الإسلام في تحريم الخمر فعادت إلى إباحته مع اعتقادها بضررها الفادح.

٢- أباحت بعض الدول الغربية وخاصة أمركيا الطلاق بعد أن كان ممنوعًا لديها بسبب تعاليم الكنيسة، ولكنها أسرفت فيه إلى درجة ضارة ولا تزال تأخذ بتشريع الطلاق.

---

(١) القرآن معجزة المعجزات ص(٥٩-٦١) ترجمة د. نبيل عبد السلام هارون ط. مكتبة القرآن.

(٢) «المنطلق» للراشد، ص(١٦٤-١٦٥)، ط. الرسالة.

٣- مصلحو أوربا يرفعون أصواتهم بضرورة السماح بتعدد الزوجات حتى بعض نسائهم طالبن بذلك نتيجة لكثرة العوانس من النساء بحيث أصبحت المشكلة ذات أهمية خطيرة على المجتمع الأوربي.

٤- الخيانات الزوجية انتشرت في المجتمع الأوربي المتمدن بشكل فظيع، وبصورة مذهلة حتى أصبحت الأسر مهدَّدة بانفصام عُراها وكثر فيها اللقطاء وذلك بسبب السفور والتبرج والاختلاط بين الجنسين.

٥- أسبانيا أصدرت حكومتها قرارًا وسنت قانونًا بمنع البغاء الرسمي في بلادها، وبمنع النساء من البروز على الشواطئ في ثياب الاستحمام.

٦- زعيم فرنسا نادى غداة هزيمتها أمام الألمان في الحرب الأخيرة فقال: إن سبب انهيار دولة فرنسا وسبب هزيمتها وانكسارها هو انغماسهم في الشهوات الجنسية، وإسرافهم في المفاسد والمفاتن.

٧- وأخيرًا نجد أن الجرائم تزداد في كل يوم في المجتمع المتمدن الغربي، مع صرامة العقوبات المشروعة عندهم بالحبس والسجن السنوات الطوال أو الإعدام بالشنق ومع ذلك نجد الجرائم المروِّعة من خطف للفتيات والفتيان وإزهاق للأرواح وسرقة في وضح النهار للبيوت والبنوك والمحلات الكبيرة حتى لقد أصبحنا نسمع عن وجود عصابات خطيرة تهدد أمن البلاد وسلامة العباد، وذلك من أعظم البراهين على فشل النظم الوضعية والتشريعات البشرية، أما الإسلام فقد حقق الأمن والسلام وقضى على الجريمة في مهدها [1].

وتقول الكاتبة «آرنون» ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها الحشمة والعفاف والطهارة.

---

(١) «مناهل العرفان» للزرقاني و«التبيان في علوم القرآن» للصابوني، ص(١١٧-١١٨)، ط: مكتبة الغزالي بدمشق.

ويقول أحد أعضاء الكونجرس الأمريكي: إن المرأة تستطيع أن تخدم الدولة حقًا إذا بقيت في بيتها الذي هو كيان الأسرة.

وتقول الدكتورة أيبرين: إن سبب الأزمات العائلية في أمريكا أو سر كثرة الجرائم في المجتمع هو أن الزوجة تركت بيتها لتضاعف دخل الأسرة، فزاد الدخل وانخفض مستوى الأخلاق ثم تقول: إن عودة المرأة إلى بيتها هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ الجيل الجديد من التدهور الذي يسير فيه.

وتقول لاد يكون: علموا النساء الابتعاد عن الرجال[1].

ومن حصاد الهشيم الذي يجنيه أولئك الغربيون وغيرهم ممن أعرضوا عن منهاج الله جَلَّ جلاله ما نشرته (النيويورك تايمز) من تحقيق مذهل اعتمد فيه على تقارير من مكتب التحقيق الفيدرالي وجاء فيه: خرج أخيرًا تقرير من مكتب التحقيقات الفيدرالية يشير إلى أن معدل الجريمة بين السيدات ارتفع ارتفاعًا مذهلًا مع نمو حركت التحرير النسائية زادت بنسبة ٩٥٪ من عام ١٩٦٩ بينما زادت الجرائم الخطيرة بينهن بنسبة ٥٢٪ ويقول التقرير إن أخطر عشرة مجرمين مطلوب القبض عليهم كلهم من السيدات ومن بينهن شخصيات ثورية اشتركن في حركة التحرر النسائية مثل جين ألبرت، وبرناردين دورن، وتقول الصحيفة وراء ربط ارتفاع نسبة الجريمة بين النساء بحركات التحرر النسائية وجهة نظر تقول: إن منح المرأة حقوقًا متساوية بالرجل يشجعها على ارتكاب نفس الجرائم التي يرتكبها الرجل بل إن المرأة التي تتحرر تصبح أكثر ميلًا للجريمة.

ومن هذه الويلات التي تجنيها الحضارة الغربية جرائم الخطف والانتحار.

ففي دول أمريكا اللاتينية لا يزال ٧٥ ألف شخص في عداد المفقودين، وفي أمريكا الوسطى يزيد عدد المفقودين عن ٤٢ ألف و٢٢٤ شخصًا في الحالات التي اعترفت بها السلطات.

---

(١) «خطورة التبرج» للمؤلف، ص [٤٩]، ط: مكتبة الإيمان.

وشهدت إيطاليا في النصف الأول من العام الماضي جريمة قتل كل ساعتين وجريمة سرقة في كل دقيقة.

وأما الانتحار فحدث ولا حرج إن الإنسان الغربي غريب معزول عن أعماق ذاته فقد كل ما يربطه بالله، وتحظى الولايات المتحدة بنصيب الأسد في عدد المقدمين على الانتحار بسبب الفشل، فقد بلغ عددهم خلال عام واحد ما يقارب الربع مليون شخص أي بمعدل ١٢٠ شخصًا يوميًا وهذا بدون شك يفوق عدد جرائم القتل التي تقع في نفس الفترة الزمنية، أما في بريطانيا وحدها فقد بلغ عدد ضحايا الانتحار ٤٠ ألف شخص خلال عام واحد.

ويقول ألكسيس كارليل في كتابه الإنسان ذلك المجهول: إن القلق والهموم التي يعاني منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فإن البيئة التي أوجدها العلم للإنسان لا تلائمه لأنها أنشئت دون اعتبار ذات الإنسان[1].

هذا هو الواقع النكد والثمرة المرة التي يحصلها ذلك الإنسان المصروف عن الفطرة المصدوف عن التوحيد والهداية والمحروم من نعمة الإيمان، فالإنسان بغير دين جسد لا روح فيه واسم بغير معنى وشبح بغير حقيقة، لا فرق بينه وبين الحيوان البهيم إلا في الاسم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾ [محمد: ١٢].

وقال جَلَّ ذكره: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

---

(١) «مبشرات النصر والتمكين» (٢٠٣-٢٠٨) بتصرف وانتقاء للدكتور العفاني، ط: مكتبة معاذ بن جبل.

ما قيمة الإنسان بغير إيمان؟! وما كرامته بغير دين؟! إنه لا سعادة ولا فلاح لأي مخلوق إلا بالإذعان لحكم خالقه وفاطره، والاستسلام لدينه، ويقدر ما يأخذ من هذا الدين ويطبق من تشريعاته تكون سعادته وفلاحه، وأمنه وصلاحه، وسروره وانشراحه، اللهم ارزقنا الاستسلام لحكمك والرضا بقضائك وقدرك والإذعان لأمرك وشرعك يارب.

تشريع محكم:

إن البشرية في عصورها المختلفة قد عرفت ألوانًا مختلفة من المذاهب والنظريات والنظم والتشريعات التي تستهدف سعادة الفرد في مجتمع فاضل، ولكن واحدًا منها لم يبلغ من الروعة والإجلال، والإتقان والاعتدال ما بلغ القرآن في إعجازه التشريعي الفريد، إن القرآن يبدأ أولًا بتربية الفرد؛ لأنه لبنة المجتمع ويقيم تربيته على تحرير وجدان المسلم من سلطان الخرافة والوهم ويفك أسره من عبودية الأهواء والشهوات حتى يكون عبدًا لله وحده لا يعبد إلا الإله الخالق، ويستعلي بهذا الإيمان على عبادة ما سواه، فلا حاجة للمخلوق إلا عند خالقه فهو إله واحد وخالق واحد لا أول له ولا آخر قديرٌ على كل شيء عليم بكل شيء محيط بكل شيء ليس كمثله شيء، وهذه أكمل عقيدة في العقل وأكمل عقيدة في الدين: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص]، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، وبعد تأصيل العقيدة الصحيحة في قلب المسلم يأخذ بشرائع القرآن في الفرائض والعبادات وكل عبادة مفروضة يراد بها صلاح الفرد ولكنها مع ذلك ذات علاقة بصلاح المجتمع كله.

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وأداء الصلاة في جماعة واجب إلا لعذر وصلاة الجمعة والعيدين تجمع المسلمين في بيوت الله كلهم يستقبلون قبلة واحدة ويتوجهون إلى رب واحد، وحسب المسلم في تربيته أن يقف بين يدي الله خمس

مرات في اليوم الواحد لتمتزج حياته بشرع الله، وتأتي الزكاة لتقتلع من النفس جذور الشح وعبادة المال والحرص على الدنيا وهي مصلحة للمجتمع حيث توفر الأمان الاجتماعي والتكافل بين الفقراء والأغنياء وتستل من نفوس الفقراء آفة الحسد والحقد على الأغنياء ثم هي طهرة للمال وزيادة للبركة فيه، والحج سياحة تروض النفس على المشقة وتفتح بصيرتها على أسرار الله في خلقه وهو مؤتمر عالمي يجتمع فيه المسلمون على صعيد واحد يتعارفون ويتشاورون وتقوى بينهم آصرة الأخوة الإيمانية والشعور بالوحدة بالانتماء لهذا الدين العظيم وفيه تعظيم لشعائر الله وحسن الاستجابة لأمره.

والصيام ضبط للنفس وشحذ لعزيمتها وتقوية للإرادة وحبس للشهوات، وهو مظهر اجتماعي يعيش فيه المسلمون شهرًا كاملًا كل عام على نظام واحد في طعامهم، كما تعيش الأسرة الواحدة في البيت الواحد.

وحض القرآن كل مسلم على الفضائل التي تروض نفسه وتهذبها كالصبر والصدق والعدل والإحسان والحلم والعفو والتواضع.

ومن تربية الفرد ينتقل الإسلام إلى بناء الأسرة لأنها نواة المجتمع، فشرع القرآن الزواج استجابة للغريزة البشرية وإبقاء للنوع الإنساني في تناسل طاهر نظيف ويقوم رباط الأسرة على الود والرحمة والسكن النفسي والمعاشرة بالمعروف ومراعاة خصائص الرجل وخصائص المرأة والوظيفة الملائمة لكل منهما، فالله يقول: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:١٩]، ويقول عَزَّ وجَلَّ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء:٣٣].

ثم يأتي نظام الحكم الذي يسود المجتمع المسلم مبنيًا على الشورى والمساواة ومنع السيطرة الفردية والعدل المطلق الذي لا يتأثر بحب الذات أو عاطفة القرابة أو

العوامل الاجتماعية في الغنى والفقر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ [النساء: ١٣٥]، كما أنه لا يؤثر في هذا العدل شهوة الانتقام من الأعداء المبغوضين، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقرر القرآن صيانة الكليات الخمسة الضرورية للحياة الإنسانية: النفس، والدين، والعرض، والمال، والعقل، ورتب عليها العقوبات المنصوصة التي تعرف بالفقه بالجنايات والحدود، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩]

وقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ﴾ [النور: ٤-٥].

وخلاصة القول أن القرآن دستور تشريعي كامل يقيم الحياة الإنسانية على أفضل صورة وأرقى مثال وسيظل إعجازه التشريعي باقيًا إلى الأبد لا يدانيه تشريع ولا يصل إلى سموه نظام ولا يستطيع أحدٌ أن ينكر أثره في تغيير وجه التاريخ[1].

ومن باب قول القائل الحق ما شهدت به الأعداء أختم بهذه الأقوال: يقول الأديب العالمي ليف تولستوي الذي يعدُّ أدبه من أمتع ما كتب في التراث الإنساني.

---

(١) «مباحث في علوم القرآن» بتصرف واختصار (٢٧٦-٢٨٠)، ط: الرسالة.

قاطبة يقول: يكفي محمدًا فخرًا أنه خلَّص أمة ذليلة دموية من مخالب شياطين العادات الذميمة وفتح على وجوههم طريق الرقي والتقدم وإن شريعة محمد العالم سوف تسود لانسجامها مع العقل والحكمة.

ويقول الدكتور «شبرك النمساوي»: إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها إذ إنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنًا أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون إذا توصلنا إلى قمته.

ويقول جوته الأديب الألماني: إننا أهل أوروبا بجميع مفاهيمنا لم نصل بعد إلى ما وصل إليه محمد وسوف لا يتقدم عليه أحد، ولقد بحثت في التاريخ عن مثل أعلى لهذا الإنسان فوجدته في النبي محمد[1].

نقول ولو أنصت العاقلون وفهم الدارسون منهم هذا الدين العظيم لسارعوا كلهم في الدخول فيه؛ لأنه دين الفطرة، دين الاعتدال، دين الحق الذي لا حق غيره، والهداية التي كل ما سواها ضلال وخبال وتيه وعمى ولله درُّ من قال:

شريعة الله للإنسان تبيانُ وكل شيءٍ سوى القرآ خسرانُ

فحق على كل من عرف قدر القرآن وجلاله أن يؤمن به ويتحاكم إليه ويدعو الناس إليه ويبصرهم بشريعته المحكمة وهدايته العاصمة وسبيله القويم، فاللهم ارزقنا التمسك بكتابك والاستقامة على ذلك حتى نلقاك يا رب العالمين.

(١) «محمد رسول الله، مقالات في الدفاع عن رسول الله»، ص(٥٣-٥٤).